

سورة الصف

هى مدينة وعدد آياتها أربع عشرة ، نزلت بعد التغابن .
ومناسبتها ما قبلها - أنها اشتملت على الحث على الجهاد والترغيب فيه ،
وفى ذلك تأكيد للنهى الذى تضمنته السورة السابقة من اتخاذ الكفار أولياء من
دون المؤمنين .

روى أحمد بسنده عن عبد الله بن سلام قال : تذاكرنا أيكم يأتى رسول الله
صلى الله عليه وسلم فيسأله . أى الأعمال أحب إلى الله ؟ فلم يبق منا أحد ، فأرسل
رسول الله صلى الله عليه وسلم إلينا رجلاً فجمعنا فقرأ علينا هذه السورة .
(الصف) كلها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١)
يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ يَقُولُوا مَالًا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ
تَقُولُوا مَالًا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا
كَأَنَّهُمْ مُبْدِيَانِ مَرْصُوصٌ (٤)

شرح المفردات

(لم) أى لأى شئ تقولون قد فعلنا كذا وكذا ، وأنتم لم تفعلوا ؟ والمراد بذلك
التأنيب والتوبيخ على صدور هذا الكذب منهم ، كبر : أى عظم ، والمقت : أشد
البعض وأعظمه ، ورجل مقيت ومقوت إذا كان يبغضه كل أحد ، والمرصوص :

المحكم، قال المبرد: تقول رصصت البناء إذا لاأمت بين أجزأه وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة .

المعنى الجملى

قال ابن عباس: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: لو ردنا أن الله دننا على أحب الأعمال إليه فنعمل به، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إليه إيمان بالله لا شك فيه، وجهاد لأهل معصيته الذين جحدوا الإيمان به، وإقرار برسالة نبيه، فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين وشق عليهم أمره فأنزل الله الآية .

الإيضاح

(سبىح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم) أى شهدله بالربوبية والوحدانية والقدرة وغيرها من صفات الكمال جميع ما فى السموات والأرض، وهو الغالب على أمره، القاهر فوق عباده، الحكيم فى تدبير خلقه وفقى ما سنه من السنن، وأرشد إليه من ضروب الهداية .

وبعد أن وصف نفسه بصفات الكمال ذكر ما يلحق المخلوقين من صفات النقص فقال :

(يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لاتفعلون؟) أى لأى شىء ولأى غرض تقولون لو ردنا أن نعمل كذا وكذا من أفعال الخير حتى إذا طلب منكم ذلك كرهتم ولم تفعلوا؟

والتوبيخ والإنكار موجه إلى عدم فعلهم ما وعدوا به، وإنما وُجّه إلى القول لبيان أن معصيتهم مزدوجة، وأنهم عملوا جُرمين . فهم تركوا فعل الخير . وقد وعدوا بفعله .

وبهذه الآية استدلل السلف على وجوب الوفاء بالوعد ، وبما ثبت في السنة من قوله صلى الله عليه وسلم « آية المنافق ثلاث : إذا وعد أخلف ، وإذا جدّث كذب ، وإذا أؤتمن خان » .

ثم بين شدة قبح ذلك وأنه بلغ الغاية في بغض الله له فقال :
 (كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) أى عظم جرماً ما عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون .

ذاك أن الوفاء بالوعد دليل على كريم الشيم ، وجميل الخصال ، وبه تكون الثقة بين الجماعات ، فترتبط برباط المودة والمحبة حين يتعامل بعض أفرادها مع بعض ، ويكونون يداً واحدة فيما اتووا من الأعمال ، والعكس بالعكس ، فإذا فشا في أمة خاف الوعد قلت الثقة بين أفرادها ، وانحلت عرا الروابط بينهم وأصبحوا عقداً متناثراً لا ينتفع به ، ولا يخشى منهم عدواً إذا اشتدت الأزمات ، وعظمت الخطوب ، لما يكون بينهم من التواكل ، وعدم الثمان بعضهم بعضاً .

وبعد أن ذمّ المخالفين في أسر القتال وهم الذين وعدوا ولم يفعلوا ، مدح الذين قاتلوا في سبيله وبالغوا فيه فقال :

(إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) أى إن الله يحب الذين يصفون أنفسهم حين القتال ولا يكون بينهم فرج فيه كأنهم بنيان متلاحم الأجزاء ، كأنه قطعة واحدة قد صُبت صبا ، وعلى هذه الطريقة تسير الجيوش في العصر الحاضر .

وسر هذا أنهم إذا كانوا كذلك زادت قوتهم المعنوية ، وتنافسوا في الطمان والنزال ، والكرّ والفرّ ، إلى ما في ذلك من إدخال الرّوع والفرح في نفوس العدو ، إلى ما لحسن النظام من إمضاء العمل بالدقة والإحكام ، ومن ثم أمرنا بتسوية الصفوف في الصلاة ، وألا يجلس المصلي في صف خلفي إلا إذا اكتمل ما في الصف

الأممى ، وهكذا تراعى الأمم في عصرنا الحاضر النظام في كل أعمالها ، في أكلها ونومها ورياضتها وتربية أولادها ، بحيث لا يطفى عمل على عمل ، فللجد وقت لا يعدوه ، وللرياضة وقت آخر ، وللنوم كذلك ، ولهذا لا يوجد تواكل ولا تراخ في الأعمال ، ولا تخاذل فيها ، ومن ثم جاء في الأثر .
« أفضل الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » .

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ : يَا قَوْمِ لِمَ تَتُودُونَى وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّى
رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ؟ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ
الْفَاسِقِينَ (٥) وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ
إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَى مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ
بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٦) :

شرح المفردات

تؤذوننى : أى تخالفون أمرى بترك القتال ، زاغوا : أى أصرّوا على الزيف والانحراف عن الحق الذى جاء به موسى عليه السلام ، أزاع الله قلوبهم : أى صرفها عن قبول الحق ، الفاسقين : أى الخارجين عن الطاعة ومنهاج الصدق المصرين على الغواية ، وأحمد : من أسماء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، قال حسان :
صلى الإله ومن يحفّ بعرشه والطيبون على المبارك أحمد

المعنى الجملى

بعد أن أنب التاركين للقتال الهاربين منه بقوله : « لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ؟ » ذكر هنا أن حالهم يشبه حال بنى إسرائيل مع موسى حين نديهم إلى قتال الجبارين

بقوله : « يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ » فلم يمتثلوا أمره وعصوه أشد العصيان ، و« قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِن فِيهَا قَوْمٌ جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنهَا ، وَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ » وقالوا : « فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ » وأصرروا على ذلك وأذوه أشد الإيذاء ، فوجههم على ذلك بما جاء في الآية الكريمة ، وقد صرفهم الله عن قبول الحق وألحق بهم الضيم والذل في الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأُنكى . ومثلهم أيضا في عصيانهم مثل بنى إسرائيل حين قال لهم عيسى : إني رسول الله ، وجاءهم بالبينات والمعجزات الدالة على صدقه وقال : إني مبشر رسول سيأتي من بعدى يسمى أحمد ، فمصوه وكذبوه ولم يمتثلوا أمره .

الإيضاح

(وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم ؟) أى واذا ذكر لقومك خبر عبده ورسوله موسى بن عمران كليم الله حين قال لقومه : لم تؤذوننى وتخالفون أمرى فتتركون القتال وأنتم تعلمون صدقى فيما جئتكم به من رسالة ربى ؟ وفى هذا تسلية لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم فيما أصابه من قومه الكافرين ومن غيرهم ، وأسر له بالصبر ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم «رحمة الله على موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر» كما أن فيه نهيا للمؤمنين أن ينالوا من النبى صلى الله عليه وسلم أو يوصلوا إليه أذى كما جاء فى قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْكَرُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَأَ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا » .

ثم بين عاقبة عصيانهم ومخالفة أمره بقوله :

(فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) أى فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به ، وأصرروا على ذلك ، صرف الله قلوبهم عن الهدى ، وأسكنها الخيرة والشك ، جزاء

وفاقا لما دسوا به أنفسهم من الذنوب والآثام ، ومخالفة أوامر رسوله ، وانهما كهم في الطغيان والمعاصي ، فران على قلوبهم ، وطمس على أعينهم ، فلم تنظر إلى ما شاهد من دليل ، ولا تبصر ما ترى من برهان كما قال : « وَتَقَلَّبُ أَعْيُنُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَلَّمَ يَوْمَئِذٍ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » .

ثم أكد إزاعته لقلوبهم وبين علتها بقوله :

(والله لا يهدي القوم الفاسقين) أى والله لا يوفق لإصابة الحق من اختار الكفر ونبذ طاعة الله ورسوله ، بما يرين على قلبه من الضلالة ، فيحرمه النظر إلى الأدلة التي نصبت في الكون ، وجعلت منارا للعقول ، وشفاء للصدور .

(وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة) أى واذكر لقومك ما قال عيسى ابن مريم لقومه : يا قوم إني مرسل إليكم من الله ، وإني مصدق بالتوراة وبكتب الله وأنبيائه جميعا من تقدم منهم ومن تأخر .

(ومبشرا برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد) أى وداعيا إلى التصديق بهذا الرسول الكريم الذى جاءت البشارة به فى التوراة ، فقد جاء فى الفصل العشرين من السفر الخامس منها : أقبل الله من سيناء ، وتجلى من ساعير ، وظهر من جبال فاران ، معه الربات الأطهار عن يمينه . « سيدنا مهبط الوحي على موسى ، وساعير مهبط الوحي على عيسى ، وفاران جبال مكة مهبط الوحي على محمد صلى الله عليه وسلم » .

وفىها فى الفصل الحادى عشر من هذا السفر : يا موسى إني سأقيم لبنى إسرائيل نبيا من إخوتهم مثلك ، أجعل كلامى فى فيه ، ويقول لهم ما أمره به ، والذى لا يقبل قول ذلك النبى الذى يتكلم باسمى ، أنا أنتقم منه ومن سبطه .

وكذلك جاء في الإنجيل ماهو بشارته به — ففي إنجيل يوحنا في الفصل الخامس عشر . قال يسوع المسيح : إن الفارقليط روح الحق الذي يرسله أبي ، يعلمكم كل شيء .

وفيه أيضا : قال المسيح من يحفظ كلمتي يحبني ، وأبي يحبه ، وعنده يتخذ المنزلة ، كلمتكم بهذا لأني لست عندكم بقيم ، والفارقليط روح القدس الذي يرسله أبي هو يعلمكم كل شيء ، وهو يذكركم كل ما قلت لكم ، أستودعكم سلامي ، لاتقلق قلوبكم ولا تجزع ، فإني منطلق وعائد إليكم ، لو كنتم تحبونني تفرحون بمضيي إلى الأب . وفيه أيضا : إن خيرا لكم أن أنطلق لأبي ، لأني إن لم أذهب لم يأتكم الفارقليط فإذا انطلقت أرسلته إليكم ، فإذا جاء فهو يوضح العالم على خطيئته ، وإن لي كلاما كثيرا أريد قوله ، ولكنكم لانستطيعون حمله ، ولكن إذا جاء روح الحق ذاك الذي يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه ليس ينطق من عنده ، بل يتكلم بما يسمع ، ويخبركم بكل ما ياتي ، ويعرفكم جميع ما للأب .

(والفارقليط لفظ يؤذن بالحمد ، فسره بعضهم بالحماد وبعضهم بالحمد ، ففي مدلوله إشارة إلى اسمه عليه السلام أحمد) كما لا يخفى على من كشف الله تعالى غشاوة التعصب عن عينيه .

(فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين) أي فحين جاءهم أحمد المبشر به بالأدلة الواضحة ، والمعجزات الباهرة ، فاجثوه بالكذب والإعراض عنه استكبارا وعنادا وقالوا : إن ماجئت به ماهو إلا ترهات وأباطيل ، وسحر واضح لاشك فيه . ونحو الآية قوله تعالى : « الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ » الآية .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ ؟
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ

وَاللَّهُ مَتِّمٌ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ
بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩) .

شرح المفردات

الإسلام : الاستسلام والالتقياد والخضوع لله عز وجل ، والمراد من إبطال نور
الله بأفواههم إرادتهم إبطال الإسلام ، بنحو قولهم هذا سحر مفتري ، والله متم
نوره : أى والله متم الحق ومبلغه غايته ، بالهدى : أى بالقرآن ، ودين الحق : أى بالملة
السمحة ، ليظهره : أى ليعليه ، على الدين كله : أى على سائر الأديان .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف أن الجاحدين لنبوته صلى الله عليه وسلم من المشركين
وأهل الكتاب لما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مفتري — أردف ذلك ببيان أنهم
دعوا إلى الإسلام والخضوع لخالق الخلق ومبدع العالم ، وأقيمت لهم على ذلك الأدلة
ونصب لهم المنار، لكنهم ظلموا أنفسهم وجحدوا النور الواضح ، والبرهان الساطع .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم

ثم بين أن السبب في ذلك هو سوء استعدادهم وتدسيثهم لأنفسهم ، وأن مثلهم
في صد الدعوة عن الدين مثل من يريد إطفاء نور الشمس بالفتح بفيه ، وأنى له بذلك ؟
فإنه متم نوره ، ومكمل دينه مهما جدد المشركون في إطفائه ؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم
ما جاء إلا بما فيه هداية البشر وسعادتهم في معاشهم ومعادهم ، وبالدين الحق
الذى لا تجرد العقول مطعنا فيه ، ولا طريقا إلا الاعتراف بما جاء به من حكم
وأحكام .

الإيضاح

(ومن أظلم من افتري على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام؟) أى ومن أشد ظلما وعدوانا من اختلق على الله الكذب وجعل له أندادا وشركاء وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص؟

وتلخيص المعنى — أى الناس أشد ظلما ممن يدعى إلى الإسلام والخضوع ، فلا يجيب الداعى بل يفترى على الله الكذب بتكذيب رسوله وتسمية آياته سحرا؟ والمراد أنه أظلم من كل ظالم ، لأنه قد أهدر عقله ، وركب هواه ، وألقى الأدلة وراءه ظهوريا .

ثم بين سبب ظلمهم وفساد عقائدهم فقال :
 (والله لا يهدى القوم الظالمين) أى والله لا يرشد الظالمين لأنفسهم إلى ما فيه صلاحهم ورشادهم ، لأنهم دسّوها باجتراح السيئات ، وارتكاب اللوثيات ، فغم على قلوبهم ، وجعل على أبصارهم غشاوة ، فلا تفهم الأدلة المنصوبة في الكون ، ولا تهتدى بهدى العقل ، بل تسير في عمية ، وتمشى في ظلام دامس لا تلوى على شيء .
 ثم ذكر جدّهم واجتهادهم في إبطال الدين ، واستهزأ بما اتخذوه من الوسائل فقال :
 (يريدون ليظفثوا نور الله بأفواههم) أى إن مثلهم في مقاومتهم لدعوة الدين ، وجدّهم في إخماد نوره — مثل من ينفخ في الشمس ليفثق نورها ، ويحجب ضياءها ، وأنى له ذلك ؟ فما هو إلا كمن يضرب في حديد بارد ، أو كمن يريد أن يضرم النار في الرماد ، أو كمن يريد أن يصطاد العنقاء .

أرى العنقاء تكبر أن تصادا فعانداً من تطيق له عنادا

(والله ثم نوره ولو كره الكافرون) أى والله معلن الحق ومظهر دينه ، وناصر محمداً عليه الصلاة والسلام على من عاداه ولو كره ذلك الكافرون به .

روى عن ابن عباس « أن الوحي أبطأ أربعين يوماً فقال كعب بن الأشرف : يا معشر يهود أشيروا ، أطفأ الله نور محمد فيما كان ينزل عليه ، وما كان ليتم نوره ، فحزن الرسول صلى الله عليه وسلم فنزلت : يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ » الآية .
ثم بين العلة في إخماد دعوتهم ، وأنه لا سبيل لقبولها لدى العقول فقال :
(هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) أى هو الله الذى أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم بالقرآن والملة الحنيفية ، ليعليه على جميع الأديان المخالفة له ، وقد أنجز الله وعده ، فلم يبق دين من الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام .

وإنما قال أولاً : ولو كره الكافرون ، وقال ثانياً ولو كره المشركون ، لأنه ذكر أولاً النور وإطفاءه فاللائق به الكفر ، لأنه ستر وتغطية ، وذكر ثانياً الجاسدين للرسول وأكثرهم من قريش ، فناسب ذكر المشركين .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنَجِّيْكُمْ مِنْ عَذَابِ
الْأَلِيمِ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ
وَأَنْفُسِكُمْ ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَعْرِفَر لَكُمْ
ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً
فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ
اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ
كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِّلْحَوَارِيِّينَ : مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ :
نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ، فَأَمْنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَائِفَةٌ ،
فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤)

شرح المفردات

التجارة هنا : ما يقدمه المرء من عمل صالح ، لينال به الثواب كما قال سبحانه :
 « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ » طيبة : أى
 طاهرة مستلذة ، جنات عدن : أى بساتين إقامة وخلود ، قريب : أى عاجل وهو
 فتح مكة ، وحوارى الرجل : صفيه وخليله ، وأنصار الله : أى الناصرون لدينه ،
 فأيدنا : أى قويننا وساعدنا ، على عدوهم : أى السكفار ، ظاهرين : أى غالبين .

المعنى الجملى

بعد أن حث في الآيات السابقة على الجهاد في سبيله ، ونهاهم أن يكونوا مثل
 قوم موسى في التواكل والتخاذل ، إذ قالوا له : اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا
 قَاعِدُونَ ، ونهاهم أيضا عن أن يكونوا مثل قوم عيسى في العصيان بعد أن أتى لهم
 بالأدلة الباهرة على صدق نبوته — ذكر هنا أن الإيمان بالله والجهاد بالمال والنفس
 في سبيله تجارة رابحة ، فإن المجاهد ينال الفوز العاجل ، والثواب الآجل ، فيظفر
 بالنصرة في الدنيا والغلبة على العدو وأخذ الغنائم وكرائم الأموال ، ويحظى في الآخرة
 بغفران الذنب ، ورضوان الرب ، والكرامة في جنات الخلود والإقامة ، ولا فوز
 أعظم من هذا .

ثم ضرب لهم مثلا بقوم عيسى فقد انقسموا فرقتين : فرقة آمنت به وهم
 حواريه ، وفرقة كفرت به وهم البقية الباقية منهم ، فأمد الله المؤمنين بروح من
 عنده ، فتم لهم الفوز والنصر على الكافرين ، وغلبوهم بإذن الله كما هي سنة الله
 في البشر كما قال : « كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ » وقال :
 « إِنَّ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُذْهِبْ أَعْدَاءَكُمْ »

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم) أى يأيها الذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله : ألا أدلكم على صفقة رابحة ، وتجارة نافعة ، نتالون بها الربح العظيم ، والنجح الخالد الباقي .

وهذا أسلوب يفيد التشويق والاهتمام بما يأتى بعده ، كما تقول : هل أدلك على عالم عظيم ذى خلق حسن ، وعلم فياض ؟ هو فلان ، فيكون ذلك أروع في الخطاب وأجلب لقبوله .

ثم بين هذه التجارة بقوله :

(تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم) أى اثبتوا على إيمانكم ، وأخلصوا لله العمل ، وجاهدوا بالأنفس والأموال فى سبيل الله بنشر دينه ، وإعلاء كلمته .

والجهاد ضروب شتى : جهاد للعدو فى ميدان القتال لنصرة الدين ، وجهاد للنفس بقهرها ومنعها عن شهواتها التى تردىها ، وجهاد بين النفس والخلق بترك الطمع فى أموالهم والشفقة عليهم والرحمة بهم ، وجهاد فيما بين المرء والدنيا بألا يتكالب على جمع حطامها ، وألا ينفق المال إلا فيما تحبزه الشرائع ، وتقره العقول السليمة .

(ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) أى هذا الإيمان والجهاد خير لكم من كل شئ فى الدنيا من نفس ومال وولد ، إن كنتم من أهل الإدراك والعلم بوجوده المنافع وفهم المقاصد ، فإن الأمور إنما تتفاضل بغاياتها ونتائجها .

ولهذه التجارة فوائد عاجلة وأخرى آجلة ، وقد فصل كلا الأمرين وقدم الثانية فقال :

(يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة

في جنات عدن ذلك الفوز العظيم) أى إن فعلتم ذلك فأمنتم بالله وصدقتم رسوله ، وجاهدتم في سبيله — ستر لكم ذنوبكم ومحاسنها ، وأدخلكم فراديس جناته وأسكنكم مساكن تطيب لذي النفوس ، وتقرّ بها العيون في دار الخلد الأبدى ، وهذا منتهى ما تسمو إليه النفوس من الفوز الذى لا فوز بعده .

ثم ذكر الفوز العاجل في الدنيا فقال :

(وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب) أى ولكم على هذا فوز في الدنيا بنصركم على عدوكم ، وفتحكم للبلاد ، وتمكينكم منها حتى تدين لكم مشارق الأرض ومغاربها .

وقد أجزأ الله وعده ، فرفعت الراية الإسلامية على جميع المعمور من العالم في زمن وجيز لم يعهد التاريخ نظيره ، وامتلكوا بلاد القياصرة والأباطرة ، وساسوا العالم سياسة شهد لهم بفضلها العدو قبل الصديق .

ثم أمرهم بأن يكونوا أنصار الله في كل حين ، فلا يتخاذلوا ولا يتواكلوا ، فيكتب لهم النصر على أعدائهم كما فعل حوار يون عيسى فقال :

(يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله؟ قال الحواريون نحن أنصار الله) أى يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ، فارعوا شأن دينه ، وأعلوا كلمته ، كما فعل الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم : من أنصارى إلى الله؟ قالوا له : نحن أنصار الله وأنصار دينه .

وقصارى ذلك — كونوا أنصار الله في جميع أعمالكم وأقوالكم ، وأنفسكم وأموالكم ، كما استجاب الحواريون لعيسى .

(فأمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة) لما بلغ عيسى عليه الصلاة والسلام رسالة ربه إلى قومه ، ووازره من الحواريين من وازره ، اهتدت طائفة من بنى إسرائيل بما جاءهم به ، وضلت طائفة أخرى إما جهوداً لرسالته ورميه هو وأمه بالعظام كما فعل اليهود ، وإما بالغلو وإعطائه فوق ما أعطاه الله من مرتبة النبوة ؛

فمن قاتل إنه ابن الله ، ومن قاتل إنه ثالث ثلاثة ، الأب والابن وروح القدس ،
ومن قاتل إنه الله .

(فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين) أى فنصرنا المؤمنين على
من عاداهم ، وأمددناهم بروح من عندنا على مقتضى سنتنا « والعاقبة للمتقين » فغلبوا
أعداءهم وظهروا عليهم كما قال « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا » فله الحمد على
ما أعطى ، والمنة على ما أنعم ، وصل ربنا على محمد وآله .

ما جاء في أثناء السورة من موضوعات

- (١) اللوم والتعنيف على مخالفة القول للعمل .
- (٢) البشارة بمحمد على لسان عيسى .
- (٣) محمد صلى الله عليه وسلم أرسل بالهدى والدين الحق .
- (٤) التجارة الرابحة عند الله هي الإيمان والجهاد في سبيله .
- (٥) الأمر بنصرة الدين كما نصر الحواريون دينهم .